أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائرية[1]

الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

جامعة الأمير عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى من والاه من المصلحين والتابعين.

أما بعد فإن الهدف من عرض هذا الموضوع هو تبيان شيء من أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائرة؛ أي تاريخية المذهب المالكي في الجزائر وعلاقته بالمجتمع المحلي، من دون التطرق إلى دراسة المذهب المالكي فقهيا. أو مقارنته بالمذاهب الأخرى.

وقبل عرض الموضوع لي أن أنوه بمساعدة الدكتور سلمان نصر أستاذ التعليم العالي في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في إخراج هذا الموضوع على هذا السشكل. وقد فضلت أن يكون هذا العرض من خلال النقاط الآتية:

1 –مفهوم الثقافة

2 – موجز تاريخي

3 – من مصادر الثقافة الجزائرية

4– أثر المذهبية في الثقافة الجزائرية

---

1 – ورقة أعدت بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الخامس عشر لزاوية ذي النورين المباركة، يومي 30سبتمبر – 1 أكتوبر 2004 بدائرة إينغر ولاية تمنراست و لم تُلق على الحاضرين.

1 –مفهوم الثقافة

للثقافة أكثر من مدلول ومفهوم. ولكن المهم في رأينا أن نفرق بين نوعين من الثقافة؛ الأول في ما يوصف بالثقافة العامة العادية المتمثلة في العادات والتقاليد اليومية لشعب مـــا. والنوع الثاني في ما يوصف بالثقافة العالِمة، أي الثقافة المبدعة والمتجددة. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار ما أضافه المذهب المالكي ثقافة عالمة بالنظر إلى مستوى الثقافة العادية الســـائدة آنذاك.

2 – موجز تاريخي

إن الجزائر من البلدان التي استوطنتها أجناس مختلفة. وعاشت وتعايشت فيها ثقافات متعددة خلال قرون عديدة، وتركت فيها بصمات واضحة؛ كثقافة الإنسان الأول وما تركه من حضارات (عين حنش، باليكاو، قبضة اليد، النصلية، العتيرية). والثقافة العربيـــة الـــتي انتشرت خلال الهجرات الأولى قبل الميلاد، وكانت ذات قيم قبلية. والفينيقية ذات النشاط التجاري والعمراني. والرومانية ذات المنشآت العمرانية الفلاحيـــة والحربيـــة. والعربيـــة– الإسلامية ذات الإسهام الديني الروحي والعلمي. والتركية العثمانية ذات الإنجازات السياسية –العسكرية البحرية. والأوروبية ذات البناءات المدنية والعلمية والعلمانية.

كلّ هذا ولّد في الجزائر مخزونا ثقافيا متميزا. كانت جوانب منه متكاملة مع الثقافـــة الجزائرية. وجوانب أخرى متقاطعة معها، وأخرى متنافرة ضدها. ومن ثم تحكمت في هـــذا المخزون الثقافي عدة فواعل، تمثلت في أكثر من خطاب عرفته الجزائر؛ ويمكن ذكر منها مـــا تمثل في خطاب سياسي جمع بين العرف والدين (عرف، دين مسيحي، دوناتيـــة...). وفي خطاب ديني مذهبي فقهي سواء أكان سنيا أم شيعيا أم خارجيا. وفي خطاب روحي صوفي. والسؤال الذي يمكن طرحه هو ما هو موقع وأثر المذهب المالكي في هذا المخزون الثقـــافي

الجزائري؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال يفرض علينا معرفة وحصر مصـــادر الثقافـــة الجزائرية.

3 – من مصادر الثقافة الجزائرية

مصادر الثقافة الجزائرية كثيرة، ونراها تنحصر في أمرين، الأول تـــاريخي. والثـــاني مرجعي تأليفي. فالتاريخي يُعرفُ من خلال الموجات الثقافية التي تعاقبت على الجزائر؛ والتي على أساسها يمكن القول إن المجتمع الجزائري مشدود من الناحية الفكرية والاجتماعيـــة إلى اعتبارات خمسة سبق أن ذكرناها في كتابنا بحوث تاريخية[1]، ونعيد ذكرها باختصار علـــى الوجه الآتي هي:

1 – اعتبار العرقية التي تتكون من القبائل والأعراش والأسر الجزائرية العريقة، التي سادت البلاد وباد بعضها وبقي البعض الآخر إلى وقتنا الحالي. وتكونت في جزء منها من الجاليات الأجنبية كاليهودية والمسيحية والزنجية الإفريقية، التي وجدت الخصب والمقام الطيب في الجزائر نتيجة لما تزخر به البلاد من خيرات وأمن، ولما كان عليه الجزائريون من تسامح وتقبل للآخر بالحوار الهادئ. والعطاء المتبادل.

2 – اعتبار **المذهبية** الفقهية خاصة السنية؛ ومنها مذهب **مالك** بن أنس رضي الله عنه الذي ولد عام 93هـ بالمدينة المنورة وتوفي عام 179هـ بعد أن أخذ العلم عن أكثـــر مـــن 100 شيخ، وله تلاميذ كثيرون[2] . نقول بمذهب مالك لأن المذاهب السنية كـــثيرة تفـــوق العشرين، إذ زيادة عن المذاهب الأربعة هناك مذهب الليث بن سعد، ومـــذهب إبـــراهيم النخعي، ومذاهب فقهاء المدينة السبعة.

3 – اعتبار **روحي صوفي** قام به شيوخ طرق ومصلحون

---

1 – **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة 2001

2 – لمزيد من المعلومات يراجع: أحمد كوري بن الشيخ بن حمدي، **مراسيل الموطأ**، ماجستير، جامعـــة الأمير عبد القادر، 1991

4 – اعتبار **فلسفي** عرفته الجزائر منذ عهد سانت أوغستين الذي أسهم بفكر فلسفي –ديني. وعهد ابن رشد في عصر دولة الموحدين. وكذلك القاضي أبي بكر بن العربي ومحيي الدين بن عربي. وتواصل هذا الاعتبار إلى مالك بن نبي في عصرنا الحالي.

5 وأخيرا **الأفكار الحديثة** المتأثرة بالعلوم الوضعية.

والمصدر الثاني للثقافة الجزائرية يتمثل في المساجد والمدارس والزوايا المنتشرة. وكذلك في وفود العلماء الذين زاروا الجزائر، وفيما تركوه من معارف. وكذلك في ما تركه أبنـــاء الجزائر الذين كانوا يقومون برحلات إلى البلاد الإسلامية ويعودون إليها بكنـــوز معرفيـــة. فصارت هذه الكنوز مرجعَ كل جزائري في علوم **القرآن الكريم**. وفي **الحديث الشـــريف** مثل كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس الذي بفضله انتشر وترسخ المذهب المالكي. وكتاب الجامع الصحيح للبخاري. وكتاب سنن أبي داوود. وكتاب جامع الترمذي. وكـــذلك في **الفقه**. وفي **اللغة العربية وبلاغتها**. وفي **التصوف**[1]

4 – أثر المذهبية في الثقافة الجزائرية

كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مبعث الصفاء وانتشار الهناء مـــن وحـــي التوحيد في التصور والمعتقد. وسار الصحابة رضوان الله عليهم من بعده على هـــذا النـــهج السديد فانتشرت الرسالة، وعلا صرح الحضارة فتآلفت القلوب بعد قساوتها، قساوة العرب الأجلاف الذين كانوا وراء الفتنة الكبرى التي مزقت صف المسلمين وضاعفت من أحقادهم لبعضهم ، وتوارث أبناء الأمة الإسلامية مسائها فاشتد بلاء المسلمين لأنفسهم، واتســـعت الهوة بين الدين والتدين، بين النص، وفهمه، بين الشريعة (الإرث) والفقه (التراث) فتعددت

---

1 – يراجع: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، **عنوان الدراية**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيع، الجزائر 1981، ص–ص. 26–28

المذاهب وتناصلت السيوف وتحزبت الفرق، فانكمشت الرقعة الإسلامية بضياع معاقلها الأمامية وتقلصت قلاع العلم ومال الفكر الإسلامي إلى النقل.

وكان المغرب الأوسط مسرحا لأهم الأحداث التاريخية إذ عرف الصراع العصبي والتديني فكانت الطرق الصوفية كثيرة، والمذاهب الدينية عديدة، ومنها المذهب المالكي الذي انتشر في بلاد المغرب بقوة لأسباب كثيرة منها:

1- اعتماد مبدأ التسامح مع الآخر عملا بالآية الكريمة "وقولوا للناس حسنا" [البقرة: 83].

2- عدم مصادرة الآخر عملا بآياته العزيز الحكيم " وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُون" [يونس:4]

ومهما يكن فقد مرّ المذهب السني في شمال إفريقيا بمرحلتين، الأولى تمثلت في التشبث بمنهج السلف والدعوة للإسلام، وكان ذلك على يد الفاتحين والفقهاء الوافدين من المشرق[1]، أي بتقبل المجتمع الجزائري للدعوة الإسلامية التي قام بها علماء من المشرق، وعلماء الجزائر حين عادوا من الحجاز. والمرحلة الثانية تمثلت في دور علماء الجزائر السنيين الذين نشطوا في الحركة العلمية في الحجاز وفي غيرها من البلدان العربية؛ إذ صار كثير منهم علماء ومدرسين بتلك البلاد ومؤلفين لكتب تعرف بكتب الرحلات الحجازية وكتب السير التاريخية، وبظهور المتكلمين المغاربة. وبهذا يكون الفقهاء على المذهب السني المالكي قد ساهموا في نشر العروبة لغةً وثقافة، والإسلام دينا وثقافةً أيضا. فاصطبغت الثقافة الجزائرية بالعروبة والإسلام معا بشكل متواز ومتطابق؛ على خلاف ما حدث في المشرق من نفور بعض السكان العرب وغير العرب من المسلمين. وهذا ما يفسر في رأينا غياب بعض

1- أهم الفقهاء الذين جاءوا من المشرق الوفد المتكون من 10 أشخاص برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز حوالي سنة 100 هـ / 778 م إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات يراجع: عبد المجيد بن حمدة، **المدارس الكلامية بإفريقية**، مطبعة دار العرب، ط. 1، تونس 1986،ص. 33 وما بعدها

النزعات الاتجاهات الفكرية والأيديولوجية في بلاد الجزائر بينما ظهرت في المشرق مثل نزعة العروبة التي اعتمدت الجنس واللغة كأساس. والنزعة القومية الدينية التي اعتمدت الدين الإسلامي. والأيديولوجيا اليسارية التي اعتمدت الصراع الطبقي.

إن أهل المغرب ظلوا متمسكين بالمذهب المالكي ولم يتحولوا عنه إلى غيره من الاتجاهات والمذاهب العقدية التي كانت تحاول أن تزاحمه. إمّا بالدعاية والإقناع بقوة الحجة والبرهان وإمّا بالإكراه بقوة الحاكم والسلطان، بالرغم من كثرتها عبر حقب التاريخ. إذ عرف المغرب الخارجية والإباضية والتشيع والمذهب الحنفي.

ولهذا، فحين يكون الحديث عن الفكر الفقهي في الجزائر يكون بالأساس والأكثر عن الفقه المالكي، وبعده عن الفكر الإباضي[1] وعن قليله الفقه الحنفي، هذا الأخير الذي انتعش بوجود العثمانيين[2]. وعن عدم وجود فكر شيعي في الجزائر، رغم أن هذه المذاهب قد ظهرت في الجزائر وانتشرت.

إذن فظاهرة انتشار المذهب المالكي وبقاؤه تثير تساؤلات عدة، فهل هذا راجع إلى طبيعة التركيبة الاجتماعية والثقافية لسكان الجزائر، أم هو راجع إلى طبيعة المذهب المالكي في حد ذاته؟ أم إلى روح التطابق بين مبادئ المذهب ومشكلات الثقافة الجزائرية؟

---

1 - نذكر من المؤلفين في الفقه الإباضي عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني الذي ولد في بني يزقن عام 1130 هجرية. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص-ص. 74-76

2 - إن التأليف في الفقه الحنفي كان قليلا مقارنة بالتأليف في الفقه المالكي والإباضي. فباستثناء ما كتبه محمد بن محمود العنابي لا نجد ما يذكر سوى نصوص قليلة. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، ص. 79. ولد محمود بن العنابي في الجزائر عام 1189 هجرية وهو من حافظي الحديث متنا وإسنادا. وكان جده حسين بن محمد العنابي تولى منصب الإفتاء ومن المفسرين للقرآن الكريم.

فمن ناحية أن المغاربة بطبيعة الأهل البربري وبحكم الأعراف الاجتماعية المتواترة [نظام شيوخ القبائل، نظام الإرث، نظام الأرض وغيرها] قريبون إلى جاء به الفقه الإسلامي عمومًا والمالكي خصوصًا. وبالنظر أيضا إلى الأصول العقدية والفكرية للمذهب المالكي والتي تؤكد على ضرورة الاتباع والتحذير الشديد من الإحداث في الدين والابتداع. ومجابهة المبتدعة والرد عليهم ومناطقهم فكريا وعلمّيا واجتماعيا- فلم تتأثر المالكية بالفرق الكلامية التي تعدى نظرها إلى فرق مبتدعة كالجبرية والقدرية والرافضة والخوارج وغيرهم.

ولأن المذهب المالكي أنتج فقها أساسه الفرائض والإرث والوقف والأحوال الشخصية ومبادئ الحساب؛ معتمدا على علم الظاهر بعيدا عن علم الباطن مثلما هو الحال لدى علما التوحيد (أذكار وأوراد ومناقب ومواعظ وشروح).

وقد انتشر المذهب المالكي في المجتمع الجزائري، وصار بعدا مميزا للثقافة الجزائرية بواسطة مختصر سيدي خليل بن إسحاق المصري، إلى درجة كما قال أبو القاسم سعد الله صار هذا المختصر في المرتبة الثالثة لدى الجزائريين بعد القرآن الكريم وصحيح البخاري[1]. وهذا ما يفسر الإنتاج الغزير لعلماء الفقه المالكي مثلما هو الحال لدى أحمد بن يحي الونشريسي الذي توفي عام 914 هـ وكذلك محمد بن محمد بن أحمد المقري الذي توفي 794هـ. وغيرهما.

ولم يكن علماء الفقه المالكي متعصبين ضد علماء المذهب الحنفي، بل اعتبره أئمته مذهبا سنيًا. لهذا نجد بعض الأئمة من كبار العلماء والفقهاء المالكية في الجزائر انتقلوا من المذهب المالكي إلى المذهب الحنفي وتولوا مناصب هامة في ظل الحكم العثماني كالإفتاء والقضاء وغيرها.

ومن أمثلة هؤلاء أبو عبد محمد بن المسبّح القسنطيني (ت 1242 هـ) قاضي السادة الحنفية بقسنطينة، كان مالكي المذهب، فاستماله عثمان باي إلى المذهب الحنفي.

1- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، ص-ص، 66-67

وكان الأقوى في بلاد المغرب من المذهب السني الأشعري (نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ت 330 هـ/ 945 م) وهو مذهب وسطي بين غلو المعتزلة في اعتماد العقل وبين المكتفين بالنص من علماء أصول الدين وعلم التوحيد أو الفقه الأكبر في الالتزام بالنقل[1]. إذ انتشر المذهب الأشعري في البلاد الإسلامية مغربا ومشرقا. وبه صارت الثقافة الجزائرية في جانبها الغالب ثقافة فقهية سنية.

واهتم علماء الفكر السني برواية الحديث والتدوين واستنباط الأحكام لهذا كانت الثقافة الجزائرية الأقرب إلى الحوار وإلى التسامح خلاف ما تقوم به فرق أخرى في بعض بلدان الشرق والمشرق.

وسبق أن عرف المغرب الأوسط تحولات سياسية كثيرة، إذ جاء المرابطون وشجعوا انتشار المذهب المالكي إلى درجة التطرف. ولكن مجيء الموحدين بقيادة المهدي بن تومرت ضعف نشاط المذهب المالكي. وبعد الموحدين ظهر المرينبون في المغرب الأقصى وظهر بنو عبد الواد في تلمسان وبنو حفص في تونس وشرق الجزائر وبين هذه الأنظمة كان الصراع وكان التطرف.

فالمرابطون تطرفوا وحاربوا المتأولين إلى درجة أنهم حرقوا كتب الإمام أبي حامد الغزالي. وكان رد الفعل ضدهم قويا من قبل الموحدين. وبسقوط دولة الموحدين عرف المغرب الأوسط تحرشا إسبانيا وأقبل الناس على المجاهدة ولكشف فكثرت الزوايا وانتشرت.

لأن المميز في الموحدين أنهم سمحوا بالتأويل[2] فظنه المجتهدون في أصول الدين والتوحيد الأمر الذي أثار حفيظة الفقهاء على المذهب المالكي الذين ناصبوا المتأولين العقليين

1- وإن كان يشهد للحارث بن أسد المحاسبي المتوفى عام 243 هـ /936م بأنه أول من أصّل المذهب الكلامي المستند على القرآن الكريم والحديث الشريف.

2-كان بن تومرت يهتدي بفكر أبي حامد الغزالي، حيث جعل من كتابه إحياء علوم الدين دستورا لأتباعه.

العداء . وبانتهاء دولة الموحدين وظهور الزيانية تقلص نفوذ المتأولين ونشط المحافظون التقليديون على مذهب مالك وعملوا على إحياء الكتاب الشريف والسنة المحمدية. وقد لقوا من تأييد العامة لهم ما سمح لهم ببعث الثقافة الجزائرية إلى أن تستمر إلى اليوم متميزة بنهجها المالكي، ولعل السبب في رأينا يعود إلى التقارب الحاصل بين الفقهاء والمتصوفة في الجزائر. وإلى بساطة المذهب المالكي التي دفعت الناس إلى الأخذ به. وإلى مكانة فقهاء المالكية العميقة في نفوس العامة، وفي نفوس الحكام إذ آزر الحفصيون فقهاء المذهب المالكي[1] وشجعوا العلوم الدينية. وكان من فقهاء السلفية المالكية الكبار ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ)[2].

اهتم المرينيون كذلك بالعلم والعلماء وقدروا حق قدرهم، إذ أن السلطان أبا يوسف يعقوب المريني كافأ كل عام بمثقال ما يزن الكتاب الذي ألفه هذا أو ذاك العالم، واشترط في معاهدة الصلح عام 768هـ أن يعيد إليه جميع المخطوطات التي كانت في قرطبة واشبيلية، وفعلا وصلت إلى خزائن المغرب حمولات كثيرة[3] ومنها كتاب الموطأ[4] لمالك بن أنس جامع لأصلح الأحاديث الشريفة من مرويات أهل المدينة الفقهاء.

وبرغم هذه التحولات السياسية وما نتج عنها من سلبيات على المذهب المالكي إلاّ أن السنيين فرضوا أنفسهم في الجزائر على الشيعة وعلى الخوارج وعلى المعتزلة، وعلى الطرقيين

1- من المعروف أن الحفصيين في الشرق الجزائري والمرنين في الغرب والزيانيين في تلمسان ظهروا على حساب الموحدين في القرن 9

2- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص- ص. 51-52

3 - رمضان يخلف، **عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير**، وماجستير جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1992، ص.13.

4 - تفهم كلمة الموطأ بمعنى المنقح، والممهد.

وحتى على الفلاسفة[1] وبذلك حافظوا على مقومات الثقافة الجزائرية، وعلى الجزائريين من سفك الدماء التي سالت كثيرا في بلاد المشرق، و لم يسلم منها كبار الأئمة.

مثلما تصدى فقهاء المالكية لنفوذ اليهود الاقتصادي والسياسي. مثلما نقموا على بعض السياسيين المسلمين. وكذلك على الجامدين من المسلمين. ودعوا إلى محاربة كل من يمس الإسلام من النصارى وقد استشهد كثيرا من العلماء الفقهاء من أجل هذا[2].

فعلماء المالكية رسخوا ثقافة التعايش السلمي بين الفاتحين والسكان الأصليين، وبينوا أهم وجوه التطابق بين الوافدين المسلمين المستقرين خاصة حول الأرض التي كان أهل المغرب الأوسط يعتبرونها هوية وعنوان وجود وتماسك اجتماعي أكثر مما هي مردود مادي أقرها القرآن الكريم كذلك على أنها ملك لله وأن الإنسان له حق النفع بها وعليه من الواجبات أن يجاهد المسلم من أجلها، إلى غير ذلك من الأمور الهامة التي قام بها المذهب المالكي لصالح المسلمين والعامة من الجزائريين. مثلما قام علماء المالكية بالدعوة للجهاد. ومنع الأحنبي من احتلال الجزائر ومصادرة ثقافته. مثلما عارض الحكام الظلمة. ونذكر من الذين قاطعوا الأمراء محمد السنوسي الصوفي المالكي وكذلك تلميذه يوسف السنوسي الذي قام بدور التقاضي بين الناس وأثر وأثرى الثقافة الجزائرية بالحفاظ على مقوماته، وبما أضافه من مخزون فكري تأليفي.

1- الملاحظ أن علم المنطق والفلك لم يشهدا حضورا مؤثرا في العهد العثماني.

2- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، ص. 81